الفصل الخامس عشر

الدعوة بالموعظة الحسنة

القرآن موعظة

● إن الدراسة الاستقرائية لآيات القرآن الكريم تبين أن لفظ «موعظة» ورد فيها تسع مرات بصيغة الاسم ، وست عشرة مرة بصيغ مختلفة . وفي عدد من الآيات يُوصف كتاب الله تعالى بأنه موعظة . فيقول ﷻ : ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٨) ويقول ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (النور:٣٤) ويقول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (يونس:٥٧).

● ويُنسب الوعظ لله تعالى في بعض الآيات ، كما في قوله تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (هود:٤٦) وقوله جل شأنه ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣١) .

– فالقرآن الكريم عامر بالمواعظ المؤثرة القوية التي تحرك القلوب وتستجيش عواطف المؤمنين ، وتزلزل قلوب البلداء والخامدين . إنها مواعظ إلهية أنزلها الله تعالى خالق الخلق ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والنبي ﷺ والمسلمون من ورائه مأمورون بالوعظ الحسن ، والله تعالى يقول لهم ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥) وفي هذه الآية الكريمة منهج كامل للدعوة الإسلامية ، وتطوير الخطاب الديني ، وهو المنهج الذي نحاول تقديمه في هذه الدراسة .

● وعلى الداعية المسلم أن يدرس كتاب الله تعالى ويفهمه ، وبذلك يعرف الغاية القصوى للدعوة ، والمناهج الكفيلة بإبلاغه إياها . والقرآن الكريم يزوده بالزاد المنشود للنهوض بواجبات الموعظة الحسنة على أكمل وجه ممكن . وليس بوسْع داعية مسلم أن ينجح في عمله دون الاستناد إلى القرآن الكريم ، سواء في الموعظة الحسنة أو الجدال بالتي هي أحسن ، أو بالحكمة في صيغها العديدة . والمهم أن يكون قادراً على معرفة الآية أو الآيات التي يستند إليها في المسألة المعينة التي يعالجها . ومن المؤلم أن هذه القدرة الأساسية المهمة محدودة لدى الدعاة عامة ، ومعدومة عند بعضهم . ولذلك يُستَشْهَد بآيات من القرآن الكريم في غير موضعها ، وبطريقة عشوائية وفوضوية ، وأحياناً يحاول البعض الانتصار لأفكارهم بآيات قرآنية لا تتصل بتلك الأفكار من قريب أو بعيد . وبعض الوعاظ والدعاة يتلو آيات القرآن ، ويجوِّدها ، ويتغَنَّى بها ، لكي يملأ الوقت المقدَّر للموعظة أو الخطبة ، ولا شيء سوى ذلك . فالرجل حافظ للقرآن عن ظهر قلب ، ولكنه لا يفقه مما يحفظه إلا القليل ، لأنه لم يحاول أن يتفقَّه ، وقَنَعَ بالتلاوة ، مجرد التلاوة ، دون بصيرة أو فقه .

المواعظ الإلهية

● ولهذا أعيد التوكيد أن منهج الدعوة الإسلامية بالموعظة الحسنة ، وبالجدال بالتي هي أحسن ، وبالحكمة ، وبكل الوسائل الدعوية لابد أن يستند إلى القرآن الكريم . والمهم أن يوجد لدى الداعية الفقه والوعي الكافي للاستشهاد بالآيات في موضعها الصحيح ، لا أن يحفظ القرآن ، ويتلوه ، اعتباطاً ، وفي غير مواضعه .

● ويذكُرُ القرآنُ الكريمُ نماذجَ للموعظة الإلهية فيقول ﷻ في حق اليهود الذين عصوا أوامره واعتدوا في السبت ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٦٥،٦٦) فالمسلم التقي يتعظ بما حاق بالعصاة لأوامر الله . ويستفيد الداعية المسلم من هذا الأنموذج الإلهي فيذكِّر المدعوِّين بما حاق بالعصاة

من النكال . وقد ذكَرَ القرآن الكريم ما حاق بقوم نوح من الغرق ، وكذلك آل فرعون ، وثمود وعاد ، وغيرهم . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ (الحاقة:٤-٧) فَلْيَغْتَرف الداعية الواعي من كتاب الله مادة مؤثرة قوية لا مثيل لها .

● ويعظ الله تعالى المؤمنين بتعليمهم الواجبات الأساسية الكفيلة بتأسيس المجتمع المسلم الراقي فيقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء:٥٨) حقاً إنها نعم الموعظة ، فأداء الأمانات واجب أخلاقي بالغ الأهمية للمجتمع ، والإخلال به خطر عظيم يزلزل ثقة الناس بعضهم في بعض ، فتضطرب الحياة الاقتصادية وتنكمش ، ويفضي ذلك إلى فقر المجتمع وتدني نشاطه العام . والحكم بالعدل هو أساس الملك ، وضمان الرضا والسكينة بين الناس ، وتبعاً لذلك كان هو الدواء الناجح للقضاء على الجريمة ، وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار ، لينشط المجتمع في كل المجالات دون تهديد أو عدوان على المال أو النفس .

● فهذا كنز ثمين للدعاة المسلمين ، يوظفون جواهره في إبراز عظمة الإسلام كدين شامل كامل ، ينظم الحياة الدنيا لكي تفضي إلى جنة الآخرة ، بل ينشئ جنة في الدنيا تكون طريقاً إلى جنة الآخرة .

- وهناك مخاطبون لا يصلح لهم في الوعظ إلا التخويف والزجر الشديد . يذكر القرآن الكريم منهم المنافقين ، فيقول ﷻ ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾(النساء:٦٢،٦٣) إن الله تعالى يعلم سرَّهم ونجواهم ، الذي هو سر الأشرار ، ونجوى الفجار ، الذين يحاولون أن يخدعوا النبي والمسلمين . فإذا علموا أن الله

يعلم نفاقهم ، وأنه أخبر رسوله بذلك ، أدركوا خيبتهم وإخفاقهم ؛ فإذا جاءوا يعتذرون لك فلا تقبل أعذارهم ، وازجرهم زجراً قوياً في السر والعلانية[1]. والداعية المسلم يتعلم درساً من هاتين الآيتين الكريمتين . فإذا شعر بذيوع النفاق بين المخاطبين ، يكفيه أن يفسر هاتين الآيتين ، وربما أضاف آيات وأحاديث أخرى تدين المنافقين وتتوعدهم أشد العذاب .

مواعظ النبي

● وقد كان رسول الله ﷺ يعظ كل من يدعوه إلى الإسلام بأن يتلو عليه شيئاً من القرآن الكريم . يقول الطفيل بن عمرو الدوسي إن رسول الله ﷺ : عرض عليّ الإسلام : «وتَلا عليّ القرآن ، فَلا واللهِ ما سمعتُ قولاً قط أحسنَ منه ، ولا أمراً أعدلَ منه . قال : فَأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق»[2].

– والتقى رسول الله ﷺ في مكة بجماعة من يثرب منهم «أنس بن رافع» ومعه فِتْيَةٌ من بني عبد الأشهل ، فقال : «هل لكم في خير مما جئتم له ؟» فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : «أنا رسولُ الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب». قال : ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن»[3].

– وبعث رسول الله ﷺ مُصعب بن عمير مع وفد «العقبة الأولى» ، وأمَرَهُ أن يُقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقّههم في الدين»[4]. ونفّذ مُصعب أمر رسول الله ، فكان يتلو القرآن على كل من يجلس إليه ليعرفَ أمره . وأسلم بدعوته خَلْقٌ كثيرون منهم سيِّدان من بني عبد الأشهل هما سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر . رضى الله عنهم جميعاً[5].

---

(١) راجع تفسير الآيتين في «الجامع» للقرطبي .
(٢) سيرة ابن هشام ؛ جـ١ ص ٣٨٣ .
(٣) نفسه ؛ ١/٤٢٧ .
(٤) نفسه ؛ ١/٤٣٤ .
(٥) نفسه ؛ ١/٤٣٦ .

- وأسلم عمر بن الخطاب ﷺ بعد أن قرأ صدر سورة طه ، بعد أن كان يقال عنه إنه لا يُسلم حتى يُسلم حمار الخطاب !! يأساً منه لما كان يُرى من قسوته على من أسلم من المكيين[1].

● ولقد اختلفت أفكار المخاطبين الآن ، ولم يعودوا يملكون البصيرة التي تمكنهم من إدراك العظة والعبرة بيسر كما كان حال من سبقهم . فعلى الداعية أن يساعدهم على إدراكها .

● والسُّنة النبوية المطهرة هي التي تأخذ بيد الداعية المسلم إلى فهم القرآن ، وبيان مبانيه ومعانيه ، ومناهجه ومقاصده . فليس في الإسلام علم إسلامي يقوم على فصل القرآن عن السُّنة ؛ وعلم الدعوة كسائر العلوم الإسلامية يقوم على مبادئ الكتاب العزيز وهدايته في ضوء بيانات السُّنة النبوية وإرشاداتها ، ومن البدهي أن هذه الحقيقة لا تمنع الداعية المسلم من الاستفادة من أي مصدر كان ، لأن «الحكمة ضالةُ المؤمن حيثما وجدها فهو أحَقُّ الناس بها». كما قال رسول الله ﷺ[2].

- وكان رسول الله ﷺ وهو يقضي بين الناس في الخصومات ، يعظهم أن يعتمدوا على الحجج الزائفة للفوز بقضاء الرسول لصالحهم ، ويذكرهم بنار جهنم التي أعدت للظالمين . فعن أم سلمة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألْحَنَ بحجته من بعض ، فَأقضي له على نحو ما أسمع! فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطعُ له قطعةً من النار»[3]. فهو يحذرهم من الحرام ومن أكل المسلم مال أخيه بالباطل ، وإنَّ حُكْمَ النبي مبني على ما يسمع من طَرَفي النزاع ، وقد يكون أحدهما أبْرع في عرض حجته ، فيحكم له النبي ، في حين أنه ليس صاحب حق .

---

(١)سيرة ابن هشام ؛ ١/٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه ؛ رقم ٤١٦٩ .

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح ؛ فتح الباري ؛ ٩٣- كتاب الأحكام ؛ باب ٢٠ رقم ٧١٦٩

- وفي هذه الأحاديث قواعد مهمة للدعوة بالموعظة الحسنة :

◘ الأولى : أنها للزجْر عن الحرام ، والتحذير من التزوير والخداع والتضليل ،

◘ والثانية أنها لتقرير مبدأ « أن حكم القاضي لا يغير الحقائق » ،

◘ والثالثة أنها تزجر عن ذلك بالتذكير بنار جهنم ، لهزِّ عواطف المتخاصمين .

● وفي حديث آخر عن ابن مسعود قال : « كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا »[1]. فهاهنا قاعدة دَعَوية وتربوية مهمة تقضي بتنظيم أوقات الموعظة الحسنة ، اجتناباً للسآمة التي قد تصيب الموعوظين . هذا على الرغم من أن الواعظ هو النبي محمد ﷺ ، وأن الموعوظين هم الصحابة ﷺ . وما جدوى المواعظ إذا كان المدعوون خاملين أو شاردي الذهن ، فاقدي النشاط؟ وهل يتعلم الدعاة اليوم هذا الدرس العظيم؟ إن هذه القاعدة الدعوية منتهكة لدى الكثير من الدعاة اليوم ؛ فبعضهم يطيل الموعظة إطالة مُمِلَّة ؛ وهو لا يملك من العلم واللغة والجاذبية ما يشد اهتمام المخاطبين بضع دقائق . وهذا يحبط الأثر الدعوي المحتمل لعظة الواعظ .

● وهذا خبر آخر عن « الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره . فعن ابن مسعود الأنصاري قال : قال رجلٌ يا رسولَ الله ! لا أكادُ أُدْرِكُ الصلاة مما يطوِّل بنا فلان ، فما رأيتُ النبي ﷺ في موعظةٍ أشَدَّ غضباً من يومئذٍ ، فقال : أيها الناس! إنكم مُنَفِّرون! فمن صلى بالناس فَلْيُخَفِّف ، فإن فيهم المريضَ والضعيفَ وذَا الحاجة »[2].

- والموعظة النبوية الحسنة هنا ، والغضب فيها غضباً شديداً ، غايتها تعليم المسلمين تخفيف صلاة الجماعة ، والنهي الشديد عن تطويلها بما ينفر الناس منها ، ويؤدي إلى شرود الأذهان ، والعجز عن متابعة ما يُتلى من القرآن الكريم .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ؛ فتح الباري ؛ ٣- كتاب العلم ؛ باب ١١ رقم ٦٨ .

(٢) نفسه ؛ ٣ كتاب العلم- باب ٢٨ -رقم ٩٠ .

● ولا بد أن نتذكر ونحن نستعرض مثل هذه القاعدة الدعوية مبدأ «فقه الحال» الذي يقتضي من الداعية التمييز بين أحوال المخاطبين ، وتبعاً لذلك يختصر ويوجز ، أو يطيل قليلاً . فهو في جميع الأحوال مطالب بمراعاة أحوال المدعوين ، بحيث لا يصيبهم سأم ولا نفور . وليتذكر أنه داعية للإسلام وليس منفِّراً من الإسلام . ومن المؤسف أن بعض الأئمة يتبارون في إطالة دعاء القنوت الذي صار ميداناً لإظهار ملكات الحفظ والاستظهار ، والبكاء والتباكي ، دون مراعاة للقواعد الدعوية .

● ومن ممارسات النبي ﷺ للموعظة الحسنة اختيار الوقت المناسب لها ، واختيار المضمون المناسب لذلك الوقت أو تلك اللحظة . فعن عليّ قال : «كنا في جَنَازَة في بقيع الغَرْقَد ، فَأَتَانا النبي ﷺ فقعد ، وقعدنا حوله ، ومعه مِخْصَرَةٌ . فَنَكَّسَ فجعلَ ينكتُ بمخصرته ، ثم قال : ما منكم من أحد ، ما من نفس مَنْفُوسةٍ إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار ، وإلا قد كُتبت شقيَّةً أو سعيدة . فقال رجل : يا رسول الله! أفَلا نتكل على كتابنا ونَدَعُ العملَ ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال : أما أهل السعادة فَيُيَسَّرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فَيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ (الليل:٥) الآية [١].

- فهذا وقت تخيم على الناس فيه رهبة الموت ، فتستعد قلوبهم لاستيعاب الدرس على خير وجه ، وهو درس مَهُول ، درس الكتاب المكتوب على كل فرد من البشر ، يحدد مكانه من الجنة أو النار وهذه هي القاعدة الأولى . والدرس الثاني هو واجب العمل ، وخطأ الاتكال على المكتوب . وهذا الجواب النبوي الكريم هو الذي حار الفكر البشري الفلسفي في العثور عليه ، فذهب بعض الفلاسفة إلى تبني الجبرية وذهب آخرون إلى تبني الحرية ، وتردد غيرهم بين الطرفين في لجاج طويل كثيف لا جدوى منه !

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ؛ فتح الباري ؛ ٢٣ كتاب الجنائز- باب ٨٢- رقم ١٣٦٢

- ومع امتداد الزمن وكثرة المذاهب الفلسفية والدينية التي عالجت مسألة القضاء والقدر ، كانت هذه الموعظة النبوية الكريمة هي الفائزة في أية مقارنة علمية موضوعية بينها وبين تلك المذاهب . والمقارنات قاعدة مهمة في منهج الدعوة ، ويجب على الداعية إجادتها والتمرس بها .

● فالقاعدة الدعوية الأولى هي واجب تحيُّن الوقت للموعظة .

● والقاعدة الثانية اختيار الدرس المناسب للوقت المناسب .

● وعن أم المؤمنين أم سلمة قالت : استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال : « سبحان الله! ماذا أُنزل الليلة من الفتن ، وماذا فُتح من الخزائن؟ أيقظوا صَوَاحِبَات الحُجَر ، فَرُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة »[1].

- وقد شرح ابن حجر رحمه الله هذه العظة النبوية فقال إن عبارة « سبحان الله » تفيد التعجب والتعظيم : « وعَبَّر عن الرحمة بالخزائن ، كقوله تعالى ﴿ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ (ص:٩) وعن العذاب بالفتن ، لأنها أسبابه». و صَوَاحِبَات الحُجَر هن أمهات المؤمنين ، وقد أمَرَ بإيقاظهن للعبادة في جوف الليل : « أي ينبغي لهن أن لا يتغافلن عن العبادة ويعتمدن على كونهن أزواج النبي »[2].

● ومن هذه العظة ندرك أحد واجبات الداعية المسلم ألا وهو التحذير من خداع الدنيا والغفلة عن الآخرة ، وأن « الكساء » في الدنيا ـ أو طيب العيش ـ قد يفضي بأهله إلى « العراء » في الآخرة . وهنا لُبُّ الموعظة ، أعني المقابلة بين حالَيْن متناقضين : حال العيش الطيب الرغيد ، وحال الإفلاس يوم الحساب ! فهذه المقابلة كفيلة بإثارة العاطفة الدينية ، وتحريك الهمم البدنية والنفسية ، لدفع أثقال النوم اللذيذ ، والدخول في عبادة الله العزيز الحكيم .

● إن هذه المقابلة البليغة المؤثرة هي إحدى قواعد الموعظة الحسنة التي يجب أن يتعلمها الداعية وأن يمارسها .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ؛ فتح الباري ؛ ٣ كتاب العلم- باب ٤٠- رقم ١١٥ .

(٢) نفسه ؛ الشرح .

مواعظ لقمان

● وذَكَرَ القرآن الكريم عظة لقمان عليه السلام لابنه ، فقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣) والشرك أكبر الكبائر ، لذلك بدأ به ذلك الواعظ الحكيم . وكان لقمان صانعاً ، ولم يكن نبياً . وهو يعظ ابنه ـ الذي قيل إنه كان كافراً ـ فيناديه في رقة ، وينهاه عن الشرك ، الذي هو ظلم عظيم للمشرك نفسه . ثم ذَكَّرَه بقدرة الله الشاملة التي لا يخرج عن سلطانها شيء ، ولو كان ضئيلاً جداً ، ولو وُجِد في أي مكان في الأرض أو في السماء . فكل المخلوقات صغيرة وكبيرة هي من خلق الله ، وتخضع لإرادته ونظامه الكوني العظيم ثم يأمره بالصلاة والطاعات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على البلاء ، كما نهاه عن الكبر . وقد عرض القرآن الكريم موعظة لقمان في أسلوب بليغ أخَّاذ مؤثر .

- ونستخلص من هذه الموعظة واجب «فقه الحال» الذي يميز بين أحوال المخاطبين . فنظراً لأن الابن كان كافراً ، وجب أن يبدأ الواعظ بالنهي عن الكفر ، وبيان فحشه بوصفه أكبر الكبائر . وبعد هذا النهي يذكِّره بقدرة الله التي يخضع لها الوجود كله ، ولا يستطيع أحد أن يهرب منها أو يفلت من عقابها ، لكي يخوِّفه من غضب الله في الدنيا ، وعذابه الأليم في الآخرة . وهناك خلاف حول إيمان الولد ، ولكني أرجِّح أنه آمن وإلاَّ لَمَا أمَرَهُ أبوه بإقامة الصلاة ، والدخول في طاعة الله ، والقيام بواجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على البلاء ، والبراءة من الكبر . فالواعظ الحكيم لا يأمر كافراً بالصلاة والطاعات !

استغلال طبيعة البيئة

● والموعظة الحسنة تستغل طبيعة البيئة للتأثير في المخاطبين . فالداعية إذا ألقى محاضرة في بيئة صناعية يجب أن يشير إلى الظواهر التي تحيط بالناس فيها ، مثل المناجم والمواد الخام من التربة والزراعة ومن الأقطان والأصواف المحلية والمستوردة ، والقوى الكهربية المتولدة من الشلالات وتيارات الهواء . فهذه الظواهر

تعين الجمهور على فهم الرسالة الدينية ، وتثبيت إيمانهم بالله الخالق المدبر ﷻ ، وتيسر استمالتهم إلى الطاعة .

- وفي البيئة الزراعية آيات بينات تنطق بها حياة الزروع والنباتات والأشجار . فالأرض الجرداء تستقبل الأمطار ، فإذا هي مخضرة ، ثم لا تلبث أن تنمو ، ثم تثمر ، لكي يَطْعَمُهَا الحيوان والطير والإنسان .

- والبيئة الساحلية تعيش على خيرات البحار من الأسماك ، وعلى الملاحة والموانئ التي تعج بالسفن الغادية والعائدة ، وعليها من أرزاق العباد خير كثير .

● وآيات القرآن الكريم تسعف الكاتب والمتحدث والمؤلف والمعلم على خير وجه . فكتابنا العزيز عامر بالإشارات والأوصاف البليغة الرائعة لكل المخلوقات في كل البيئات : من البحار والأنهار ، والأمطار ، والسحاب والغمام والرياح والعواصف ، والشمس والقمر والنجوم ، والكواكب ، والزروع والورود والحبوب والفواكه والجنات .

شروط عمل الموعظة الحسنة

● ويقول الأستاذ محمد قطب إن : « الموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان ، وتهزه هزاً ، وتثير كوامنه ، لحظة من الوقت ، كالسائل الذي تُقَلَّب رواسبه فتملأ كيانه ، ولكنها إذا تُركت تترسَّب من جديد » .

« لذلك لا تكفي الموعظة الحسنة وحدها في التربية إذا لم يكن بجانبها القدوة ، والوسط الذي يسمح بتقليد القدوة ويشجع على الأسوة بها . . »

« وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفس ، وتصبح دافعاً من أعظم الدوافع في تربية النفوس »[1] .

● وهذا الكلام يطرح أسئلة مهمة : فكيف تكون موعظة الدعاة مؤثرة ؟ وشرط وجود القدوة الحسنة ، أو الوسط الاجتماعي الذي يشجع على اتباع القدوات

---

(١) انظر كتابه : « منهج التربية الإسلامية ؛ دار الشروق ؛ ط ٦ سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ؛ ص ١٨٧ .

الحسنة ، يثير الأسئلة التالية : كيف نُوجِد القدوات الحسنة ، وكيف ننشئ المجتمع المسلم الذي يشجع على وجودها وعلى اتباعها ؟

● وهذه أسئلة كبيرة جداً أمام التطوير المنشود للخطاب الديني .

القصص في الموعظة

● وفي اعتقادي أن الموعظة تكون مؤثرة في المخاطبين إذا اشتملت على عناصر عديدة ، مثل : قصص الأنبياء والسلف الصالح ، تلك التي تبين تضحياتهم من أجل دينهم ، وتجسد إيثارهم الرائع على أنفسهم من أجل أهليهم ، وأرحامهم ، وجيرانهم ، وأمتهم . وقصص البطولة الرائعة التي تحلّى بها رجال عظماء من الصحابة والتابعين ، وعلى امتداد التاريخ الإسلامي ، رجال من أمثال علي ابن أبي طالب ، وأبي دُجانة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، والقعقاع ابن عمرو ، وزهرة بن حُوَيَّة ، وصلاح الدين الأيوبي ، والأمير عبدالقادر الجزائري ، وعمر المختار ، وعبدالكريم الخطابي ، رحمهم الله جميعاً . وهذه عينة وليست إحصائية حصرية .

- وفي مجال العلم ، الموعظة الحسنة لا بد أن تستند إلى عظمة رجال أفذاذ أمثال : أبي حنيفة ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل والشافعي ، والحسن البصري ، والبخاري ومسلم ، والغزالي وابن تيمية والعز بن عبدالسلام ، رحمهم الله جميعاً . وهذه أمثلة من قائمة ذهبية طويلة ، كل اسم فيها نجم بازغ في سماء العلم والمعرفة ، وسيرته كلها عظات تثير الإعجاب والتقدير .

- وفي كل مجال هناك مثل هؤلاء النجوم . وعلى الداعية المسلم أن يدرس تاريخ الإسلام ، ويتحقق من قصص الزعماء والأبطال والعلماء والعُبَّاد الكبار ، ويصفّيها من الإضافات التي تكدّر صَفْوَها وتخرجها عن حقيقتها الواقعية إلى عالم الأساطير والخرافات ، كما حدث لقصة الصحابي البدري الجليل ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقصة الصحابي الزاهد سعيد بن عامر ، وغيرهما ﷺ جميعاً .

● ويجب على الداعية المسلم ـ كاتباً كان أو متحدثاً ـ أن يدرس آثار الوعاظ والعلماء الكبار ، ويقتدي بهم .

الوعظ بالفيديو

● ولقد رأيت في الفترة الأخيرة ، منذ بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي ، محاولات لتطوير منهج «الموعظة الحسنة» في أحاديث عبر شرائط الفيديو . وقد شاعت وانتشرت هذه الشرائط ، واشتهر بعض الوعاظ الذين مارسوا تلك المواعظ . غير أن بعض الأخطاء وقعت في بعض تلك الأشرطة . ففي أحدها تحدث الواعظ عن أضرار المخدرات ، ثم جاء بشاب تاب وأناب . وقص الشاب قصته ؛ وفي أثناء ذلك أخذ الولد يوجه اللوم لوالديه ويحملهما مسئولية سقوطه فريسة للمخدرات . وأحسب أن بر الوالدين لا يسمح بذلك ، لأنه لا يسمح بأن يقال لهما «أُف !» والواعظ يعرف ذلك ، لكنه لم ينتبه . وكان من اليسير تحقيق الغاية من الموعظة دون رؤية الصورة ، ودون ذِكر أسماء الوالدين أو الولد ، والاكتفاء بسماع الصوت فقط .

● هذه الواقعة تشير إلى ضرورة ضبط الأداء في «الموعظة الحسنة» بمنهج «الحكمة» ؛ فهما في الحقيقة متكاملان ومتداخلان ، والداعية ينتقل من «الموعظة الحسنة» إلى «الحكمة» ، ثم يعود إلى الموعظة ، وهكذا ، في المقال الواحد أو القصة أو المسرحية أو الخطبة الواحدة . وإن «الموعظة» مجردة من «الحكمة» هي «موعظة سيئة» ، كما حدث في موعظة الشاب المدمن الذي تاب الله عليه . وليس عبثاً أن أمَرَ اللهُ تعالى بالدعوة بالحكمة مطلقاً دون شرط أو قيد ، ثم قيَّد الدعوة بالموعظة بـ«الحسنة» .

● والآن نستكمل الحديث في مسألة القدوة والوسط الاجتماعي اللذين اشترطهما الأستاذ محمد قطب لاستمرار عمل «الموعظة الحسنة» . إن هذا الشرط يضعنا أمام حقيقة تآزر المؤثرات الدعوية والتربوية ، وأهميته البالغة ، ليؤدي كل مؤثر دوره بنجاح ، ولا توجد ـ عندئذ ـ ظاهرة «التهادُم المتبادل» بين المؤثرات المختلفة . لكن هذا التآزر عسير المنال !

- إن الواعظ قد ينجح في جذْب انتباه المشاهدين له في التلفاز وقد يحرك كوامن قلوبهم ، لكنَّ مسرحيةً هابطةً تُعرض بُعَيْدَ «موعظته الحسنة» كفيلة بإخماد العاطفة الدينية التي حركتها موعظته ، وإحلال تشكيلة من المشاعر الهابطة محلها .

- والحل في يد السلطات الثقافية والدينية في أي مجتمع . إن عليها أن تجعل المسرحية كالموعظة الحسنة ، والرواية كالحكمة ، تياراً واحداً ، يتجه إلى قيم عليا إسلامية ، لتنشئة الإنسان المسلم الصالح ، مع الاختلاف بين الوسائل والمناهج الدعوية والتربوية والفنية . وهذا ليس مستحيلاً إذا كانت «الدعوة» على وفاقٍ مع «الدولة» ، لأن هذا الوفاق يكفل وحدة القيم العليا ووحدة الغايات القصوى ووحدة المرجعية . أما إذا اختلفت «الدعوة» مع «الدولة» ، فكانت الدعوة كما يجب أن تكون دائماً «إسلامية» ، وكانت «الدولة» اشتراكية علمانية ، أو رأسمالية براجماتية ، فإن القيم سوف تختلف ، ووسائل التربية والدعوة سوف تتصادم ، وتتهادم ، كما هو حاصل الآن في كثير من بلاد المسلمين . فالإسلام يقول إن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أعلى القيم ؛ والعلمانية تقول : إن الحرية أعلى قيمة من الإيمان . ولذلك تعتبر حرية الردة من حقوق الإنسان . والإسلام يعتبر الردة نَسْفاً لأعلى قيمة في الدين . وهكذا تتصادم «الدعوة» ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ مع الدولة العلمانية ووسائلها التربوية والفنية .

● إن المجتمع المسلم ينشأ بجعل الدولة مع الدعوة . عندئذ تثمر الموعظة الحسنة ، متكاملة مع «الحكمة» ، وتتكاثر القدوات الحسنة التي تجسِّدها في الواقع والحياة .

كيف يستطيع الداعية أن يؤثر في غير المسلمين؟

● إن هذا هو السؤال المهم يطرح نفسه الآن :

- وأبادر إلى القول إن «الموعظة الحسنة» ـ غالباً ـ ليست المنهج السديد لدعوة غير المسلمين ، وخصوصاً في عصرنا اليوم ، حيث برع المخاطبون في الجدال

والمناظرة بالحق وبالباطل ، وفي الاستناد إلى الحقائق الكونية والعلمية ، التجريبية والنظرية . فإذا لم يكن الداعية على درجة عالية من المعارف العلمية التجريبية ، وأحوال الدول والأمم في هذا العصر ، فإنه لا يصلح لدعوة غير المسلمين ، كاتباً أو متحدثاً .

● «الموعظة الحسنة» هي منهج دعوة المسلمين العصاة إلى الطاعة . ولكن هذا لا يسوِّغ للدعاة استعمال الخرافات والخزعبلات للتأثير في مشاعر المخاطبين ، لأن هؤلاء المخاطبين فيهم الكثيرون من المتعلمين والمثقفين وأنصاف المتعلمين وأشباه المثقفين ، وهم يسخرون من الداعية الذي يستجيز لنفسه رواية أخبار خرافية عن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أو عن الصحابة ﷺ . فلم يبق للداعية غير التأثير في القلوب والمشاعر عن طريق الحقائق . والإسلام غني بهذه الحقائق ، في القرآن الكريم وحقائق السيرة المطهرة . والتاريخ الإسلامي منجم من الذهب للداعية الباحث عن الحقائق المدهشة المؤثرة .

- بهذا تقترب «الموعظة الحسنة» من «الحكمة» ومن الجدال بالتي هي أحسن، مع تميزها بالتوجه إلى المشاعر والوجدان . ويشعر المرء أمام هذه الحقائق بالبون الشاسع بين «الموعظة الحسنة» كما يجب أن تكون ، وبين أحوال الدعاة في واقعنا الآن ، كما يشعر بثقل المسئولية على عاتق كل من يحاول تطوير الواقع الراهن المتدهور إلى المستوى المنشود ، أو الاقتراب منه . فلا بد من تفكير عميق وتخطيط دقيق ، وعمل شاق ، ونفقات باهظة للنهوض بتلك المهمة ، في مجال التعليم الجامعي الإسلامي عامة ، وفي كليات الدعوة ومعاهدها على وجه الخصوص . وهذا ما نريده من تطوير الخطاب الديني .

● وإضافة إلى ما سبق نستخلص هذه القواعد الدعوية :

◘ أن الرقة واللطف في بداية الموعظة مطلوبان ،

◘ وأن من البدهي أن نبدأ بالدعوة إلى العقيدة الصحيحة طالما كان المدعوون كفاراً أو كانوا مسلمين مختلي العقيدة ، ويكون المنهج هو الحكمة والجدال بالتي هي أحسن .

◘ فإذا استجاب المدعوون وآمنوا ، دعوناهم إلى العبادات .

◘ وأن التذكير بقدرة الله تعالى وعظمته عُدَّة الداعية لإقناع المخاطبين وتخويفهم من عواقب الشرك أو المعاصي والآثام .

◘ وأن التعبير الواضح الحاسم المعبر مطلوب للداعية ، والقرآن الكريم يزوده بذلك . والمهم أن يعرف ماذا يريد ، لكي يصح اختياره للآيات التي يستند إليها ويستشهد بها .

* * *